وقدره وينفذ سابق مشيئته علينا وقال الواحدي معنا العود هنا الابتداء الذي عليه اهل العلم والسنة في هذه الآية ان
شعيبا واصحابه قالوا ما كنا لنرجع الى ملتكم بعد اذ وقفنا على انها ضلالة تكسب دخول النار الا ان يريد الله اهلاكنا فامورنا
راجعة الى الله غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء ويشقي من يشاء بالمعصية وهذا من شعيب وقومه استسلام للمشيئة
ولم تزل الانبياء والاكابر يخافون العاقبة وانقلاب الامر الا ترى الى قول الخليل ابراهيم عليه السلام واجنبني وبني ان نعبد
الاصنام وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قال الزجاج المعنى وما يكون
لنا ان نعود فيها الا ان يكون قد سبق في علم الله ومشيئته ان نعود فيها وتصديق قوله وسع ربنا كل شيء علما يعني انه تعالى
يعلم ما يكون قبل ان يكون وما سيكون وانه تعالى كان عالما في الازل بجميع الاشيا فالسعيد من سعد في علم الله والشقي
من شقي في علم الله تعالى على الله توكلنا يعني على الله نعتمد واليه نستند في امورنا كلها فانه الكافي لمن توكل عليه والمعنى
على الله توكلنا لا على غيره فكانه ترك الاسباب ونظر الى مسبب الاسباب ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق لما ايس
شعيب من ايمان قومه دعا بهذا الدعا فقال ربنا افتح اي اقض وافصل واحكم بيننا وبين قومنا بالحق يعني بالعدل الذي
لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف وانت خير الفاتحين يعني خير الحاكمين قال الفرا ان اهل عمان يسمون القاضي الفاتح وقال غيره
من اهل اللغة هو لغة مراد وانشد بعضهم * الا ابلغ بني عصم رسولا * فاني عن فتاحتكم غني * اراد غني عن حاكمكم وقاضيهم
وقال ابن عباس ما كنت ادري ما معنى قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول تعالى
افاتحك يعني اقاضيك وهذا قول قتادة والسدي وابن جريج وجمهور المفسرين ان الفاتح هو القاضي والحاكم يسمى
بذلك لانه يفتح اغلاق الاشكال بين الخصوم ويفصلها وقال الزجاج وجائز ان يكون معناه ربنا اظهر امرنا حتى
ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف والمراد منه ان ينزل عليهم عذابا يدل انهم مبطلين وعلى كون شعيب وقومه محقين
وعلى هذا القول فالفتح يراد به الكشف والتمييز وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون
يعني وقال جماعة من اشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم لئن اتبعتم شعيبا على دينه وتركتم دينكم وملتكم وما انتم عليه انكم
اذا لخاسرون يعني انكم لمغبونون في فعلكم فاخذتهم الرجفة يعني الزلزلة الشديدة فاصبحوا في دارهم جاثمين قال ابن عباس
وغيره فتح الله عليهم بابا من جهنم فارسل عليهم حرا شديدا فاخذ بانفاسهم فلا ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا في الاسراب
ليبردوا فيها فوجدوها اشد حرا من الظاهر فخرجوا هربا الى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فاظلتهم
وهي الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى اذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم
ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الارض من تحتهم فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي وصاروا رمادا ويروى ان الله تعالى
حبس عنهم الريح سبعة ايام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا وقال قتادة بعث الله شعيبا الى اصحاب الايكة والى
مدين فاما اصحاب الايكة فاهلكوا بالظلة واما اهل مدين فاخذتهم الصيحة صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا قال عبد
الله بن البجلي كان ابو جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم في زمن شعيب يوم الظلة
اسمه كلمن فلما هلك قالت ابنته شعرا تبكيه وترثيه به * كلمن كدر ركني * هلكه وسط المحله * سيد القوم اتاه *
ملكه نار تحت ظله * جعلت نارا عليهم * دارهم كالمضمحله * وقوله تعالى الذين كذبوا شعيبا كان لم يغنوا فيها يعني كان
لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوما من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا اقمت به والمغاني المنازل التي بها اهلها واحدها مغنى
قال الشاعر * ولقد غنوا فيها بانعم عيشة * في ظل ملك ثابت الاوتاد * اراد فيها اقاموا وقيل في معنى الآية
كان لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين يقال غني الرجل اذا استغنى وهو من الغنا الذي هو ضد الفقر الذين كذبوا
شعيبا كانوا هم الخاسرين يعني خسروا انفسهم بهلاكهم فتولى عنهم يعني فاعرض عنهم شعيب شاخصا من بين اظهرهم
حين اتاهم العذاب وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم يعني انه قال لهم ذلك لما تيقن نزول العذاب

بقومه

بقومه ولم يختلفوا هل كان ذلك القول قبل نزول العذاب او بعده على قولين سبقا في قصة صالح عليه السلام وقوله
تعالى فكيف آسى يعني احزن على قوم كافرين والاسى اشد الحزن وانما اشتد حزنه على قومه لانهم كانوا كثيرين وكان
يتوقع منهم الاستجابة والايمان فلما نزل بهم ما نزل من العذاب عزى نفسه فقال فكيف احزن على قوم كافرين لانهم الذين
اهلكوا انفسهم باصرارهم على الكفر وقيل في معنى الآية ان شعيبا قال لقد اعذرت لكم في الابلاغ والنصيحة والتحذير
فلم تسمعوا قولي ولم تقبلوا نصحي فكيف احزن عليكم يعني لستم مستحقين بان احزن عليكم فعلى القول الاول انه حصل
لشعيب حزن على قومه وعلى القول الثاني لم يحزن عليهم والله اعلم وقوله تعالى وما ارسلنا في قرية من نبي فيه
اضمار وحذف تقديره فكذبوه الا اخذنا اهلها بالباساء والضراء قال ابن مسعود الباساء الفقر والضراء المرض وهو
معنى قول من قال الباساء ما نالهم من الشدة في اموالهم والضراء ما نالهم من الامراض وقيل الباساء الشدة وضيق العيش
والضراء الضر وسوء الحال لعلهم يضرعون يعني انما فعلنا بهم ذلك لكي يتضرعوا ويتوبوا والتضرع الخضوع والانقياد
لامر الله عز وجل والمراد من هذه الآية ان الله عز وجل اعلم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم احوال الانبياء مع اممهم
المكذبة وقص عليه من اخبارهم ليعرف سنته في الامم الذين خلوا من قبله وما صاروا اليه من الهلاك والعذاب
عرفه في هذه الآية انه قد ارسل رسلا الى امم اخر فكذبوا رسلهم فاخذناهم بالباساء والضراء كما فعل بمن كذب رسله
وفيه تخويف وتحذير لكفار قريش وغيرهم من الكفار ليزدجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ثم بين تعالى انه
لا يجري تدبيره في اهل القرى على نمط واحد وسنة واحدة انما يدبرهم بما يكون الى الايمان اقرب وهو قوله تعالى
ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة لان ورود النعمة على البدن بعد الشدة والضيق يستدعي الانقياد للطاعة
والاشتغال بالشكر قال اهل اللغة السيئة كل ما يسوء صاحبه والحسنة كل ما يستحسنه الطبع والعقل فالسيئة
والحسنة هنا الشدة والرخاء والمعنى انه بدل تعالى مكان الباساء والضراء النعمة والسعة والخصب والصحة في
راج الابدان فاخبر الله تعالى في هذه الآية انه ياخذ اهل المعاصي والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج
وهو قوله حتى عفوا يعني انه فعل ذلك بهم حتى كثروا وكثرت اموالهم يقال عفا الشعر اذا كثر وطال قال مجاهد حتى
كثرت اموالهم واولادهم وقالوا يعني من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا الى الرخاء والسعة قد مس آباءنا الضراء
والسراء يعني قالوا هكذا عادة الدهر قديما وحديثا لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضر عقوبة لنا
من الله على ما نحن عليه فكونوا على ما انتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فانهم لم يتركوا دينهم لما اصابهم ما اصابهم من
الضراء والباساء قال الله تعالى فاخذناهم بغتة يعني فجاة آمن ما كانوا ليكون ذلك اعظم لحسرتهم وهم لا يشعرون
يعني بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة اعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب قوله عز وجل ولو ان
اهل القرى آمنوا واتقوا يعني لما بين الله تعالى في هذه الآية انهم لو آمنوا يعني بالله ورسوله واطاعوه فيما امرهم به
واتقوا يعني ما نهى الله عنه وحرم عليهم لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض فبركات السماء المطر وبركات الارض
النبات والثمار وجميع ما فيها من الخيرات والانعام والارزاق والامن والسلامة من الآفات وكل ذلك من فضل
الله واحسانه على عباده واصل البركة ثبوت الخير الالهي في الشيء وسمي المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا
ثبوت البركة في نبات الارض لانه نشا عن بركات السماء وهي المطر وقال البغوي اصل البركة المواظبة على الشيء
اي تابعنا عليهم بالمطر من السماء والنبات من الارض ورفعنا عنهم القحط والجدب ولكن كذبوا يعني فعلنا
بهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا يعني الرسل فاخذناهم بانواع العذاب بما كانوا يكسبون يعني اخذناهم بسبب
كسبهم الاعمال الخبيثة قوله عز وجل افامن اهل القرى هو استفهام بمعنى الانكار وفيه وعيد وتهديد وزجر
والمراد بالقرى مكة وما حولها وقيل هو عام في كل اهل القرى الذين كفروا وكذبوا ان ياتيهم باسنا يعني

Copyright © King Saud University